الفصل الثالث عشر

الورش المسرحية

يمكننا الاستفادة في مسرح الصم الراقص من بعض الورش المسرحية التي تسعى لخلق مسرح يحاول تناول الواقع في لحظة تغيره، كي يقترب من طاقات تعبيرية جديدة من خلال الانفتاح على التجارب والتجريب في المسرح الغربي.

إن التجريب المسرحي يعني تغير خارطة الإبداع المسرحي داخل مجموعات مسرحية أو جماعات وفي الاطلاع على بعض نماذج من الورش المسرحية إفادة كبيرة في مسرح الصم الجديد لما تتضمنه من خبرات وتجارب خبراء المسرح العالميين.

إن أهم ما قامت عليه ورش الخبراء المسرحيين التي نحن بصدد الحديث عنها هو البحث عن كيفية خلق علاقة وطيدة بين الممثل ومفردات العرض المسرحي . كما يتم تدريب الممثل في هذه الورش المسرحية على العلاقة بين الجسد في الفضاء والزمن . أي البحث عن الإيقاع الموسيقي الداخلي لحركة الجسد وهذا يعني أن الحركة أو الجسد يمتلك فضاءه الخاص الذي يفرض لغة الجسد في الفضاء والزمان وهذا يبرر أحياناً الاستغناء عن الكلمة مقابل لغة جسد الممثل الخاصة والممثل في المسرح التجريبي هو فاعل ومشاهدة هو متفاعل لا يشاهده ويتسلى بل يتفاعل ...

ويتضمن برنامج العمل في الورش المسرحية بعض العلاقات مثل:

- ✓ علاقة الممثل وأدواته (جسده – تعبيره الصامت – حركته) .
- ✓ الممثل وعلاقته بالفراغ المسرحي العاري باعتباره أهم مراكز من مراكز إسقاطه .
- ✓ الممثل وعلاقته بشركائه من الممثلين .
- ✓ الممثل وعلاقته بالإضاءة المسرحية .
- ✓ الممثل وعلاقته بالموسيقى .
- ✓ الممثل وعلاقته بالمهمات المسرحية (قطع الإكسسوار) .

وفيما يلي عرض لبعض نماذج من الورش المسرحية التي يمكن الاستفادة منها في مسرح الصم الراقص " التجريبي " .

أولاً : ورشة جون ميشيل وباسكال ليتليه ـ فرنسا

إن الفكرة التي قامت عليها تلك الورشة هي محاولة منح الشباب من هواة المسرح إمكان التعبير عن أنفسهم بتلقائية دون رقابة فوق خشبة المسرح بشكل أقرب ما يكون إلى الارتجال دون تدخل من الخبير المسرحي الفرنسي ، وعند المشاهدة يبدي الخبير ملاحظاته القائمة على منح هؤلاء الشباب خلاصة تجربته في فنون الأداء المسرحي وتدريبهم على معرفة عيوبهم واستدراكها ، وذلك في مرحلة أولى ثم إعادة عملهم من جديد وفقاً لهذه الملاحظات ، وبهذا يحقق " المدرب " في ورشته إمكان تبين الممثل عيوبه ثم التخلص من هذه العيوب والإتيان ببدائل فنية تتيح لهذا الممثل الشاب أن يقدم فنه على أسس فنية صحيحة . من بين هذه الملاحظات المهمة التي تمت أثناء الورشة ما يتصل بفنون الحركة والتعبير الجسدي والعلاقة بين الممثل وشريكه وعلاقة الممثل بمهمات المسرح " قطع الإكسسوار " ...

- ✓ يحاول المدرب أن يغرس في نفوس الهواة داخل الورشة المسرحية حبهم للفراغ المسرحي وكيفية تشكيله وفقاً للحدث الدرامي وتحديداً للمكان حتى لو كان هذا المكان متخيلاً وليس واقعياً سواء أكان داخلياً أم خارجياً.
- ✓ تتسلل عند المدرب إظهار الأمكنة حيث يقوم الممثل حتى النهاية بالبحث عن منطقية الأحداث عبر هذه الأمكنة.
- ✓ عندما يحدث فرق واضح بين الشخصيات المختلفة التي يؤديها الممثل الواحد فوق الخشبة ينعكس هذا في حركة الجسد وتكويناته في أشكال متنوعة كل منها حسب تكوينه ...

ولتأكيد مصداقية ما نشاهده فوق خشبة المسرح يناشد المدرب ممثليه بالآتي :

- ✓ إيجاد علاقة حتمية بين الممثل وقطع الإكسسوار.
- ✓ أحياناً تصبح قطعة الديكور بطلاً متكلماً.
- ✓ الاهتمام بكل ما هو صغير أو يبدو ناقص القيمة فوق الخشبة (أي الاهتمام بالتفاصيل كافة).
- ✓ البحث عن مصداق الأشخاص التي يمثلها الممثل فيجب أن يشعر المتفرج- الفاعل - عن من يتحدث الممثل ؟ وما شكله ؟ وما الوظيفة المنوط به تحقيقها ؟ وما الفئة التي يمثلها ؟!
- ✓ يطالب " المدرب " بمسرحة الأحداث الواقعية وليس بتقديمها بشكل فوتوغرافي ويؤكد هذا المنطق التفريق الضروري لدى الممثل بشكل خاص والفنان بشكل عام ، بين مستويات الوعي ومعرفة الاختلاف الواضح ما

بين الواقع الحياتي والواقع الفني الذي يتشكل فوق الخشبة ويختلف معه بشكل متباين .

- ✓ يطلب " المدرب " من الممثل الاهتمام بتركيب حركته فوق الخشبة دون أن تغطى حركته على حركة الممثل الآخر، تساعد الحركة على التخليق أكثر، وعلى تشكيل الممثل في الفراغ المسرحي الذي يقع في مركزه .
- ✓ الحركات غير المحددة التي لا يتحكم فيها الممثل تعدد بلا معنى إذا لم يجد الممثل حركة تفيد الحدث أو لها خاصيته المميزة في ذاتها فالأفضل ألا يقوم الممثل بصنعها .
- ✓ يجب على الممثل أن يخرج من نمطية الحركة التقليدية في الزمان والمكان.
- ✓ تغيير تعبيرات الوجه من العوامل الرئيسية التي على الفنان الاهتمام بها وعليه ألا يتعامل معها بشكل نمطي أو تقليدي .
- ✓ الحركات الطبيعية ينبغي أن تحال إلى حركة مسرحية مفيدة تعود على الحدث بالكثير وليس مجرد نقل حرفي . إن الحركة تساعد – حسب قول المدرب الفرنسي – على التحليق أكثر في عوالم يمكن للممثل تشكيلها والقيام بالرقابة عليها .
- ✓ قد يبدو ثبات الممثل فوق خشبة المسرح أكثر قوة من حركته الفعلية التي قد تبدو حركة ليس لها معنى .
- ✓ أحياناً يصبح من الأفضل للممثل أن يستعين بتركيز في التعبير، دون الاستعانة بحركة اليدين التي يمكن أن تغطي على قيمة الحركة أو الموقف الدرامي المطروح ، مما يساعد على التركيز في تكثيف طاقته.

- ✓ قد يدفع ثبات الممثل وسكونه في موضعه دون حركة فترة زمنية طويلة إلى التعبير العضوي عن اللحظة الذي قد يدفعه إلى الصراخ أو قد يتحول جسده وكيانه إلى رقصة أو تعبير أو صرخة تخرج من أعماقه كانفجار دون أن يتحرك خطوة أو أكثر وقد يكون هذا التعبير أكثر بلاغة من الحركة نفسها .

هذه هي بعض الملاحظات التي أبداها المدرب الفرنسي في ورشته المسرحية التي استمرت أكثر من شهرين عدة ساعات يومياً ، وضع فيها يده على العيوب المتأصلة في الممثل ليخرج من هذه الورشة أكثر وعياً بهذه العيوب لتلافيها ولمحاولة إعادة صياغة أدواته الفنية من جديد ...

ثانياً : ورشة يوزيف شاينا المسرحية – بولندا

أشرف " يوزيف شاينا " الذي يعد أحد رواد المسرح التجريبي البولندي والعالمي على ورشة إعداد شباب الممثلين وكيفية التعامل مع العرض المسرحي باعتباره رؤية بلاستيكية تشكيلية ، فالممثل عنده أصعب معضلة من معضلات أدواته الفنية ويطالب الممثل بتكيف جسده مع الإطار التشكيلي لخشبة المسرح التي يشكلها " شاينا " في نهاية الورشة المسرحية داخل العرض المسرحي (بقايا الذاكرة) بالمهمات المسرحية (الجوالات – السلالم – العربات – الأحجار – إطارات العجل – والممثلين) ليكون تشكيلاً من الأجساد التي تشكل مع كل هذه الأشياء لوحة مسرحية تشكيلية . وفي ورشته المسرحية أكد " شاينا " أن المخرج المسرحي هو مؤلف العرض الأساسي أما الكاتب المسرحي فيمثل نصه المسرحي مفردة واحدة من مفردات متعددة للعرض المسرحي حيث يمثل الممثل بجسده

وتعبيره الصامت وحركته همزة الوصل الحقيقية لكل هذه العناصر المختلفة (ديكورات تشكيلية أقرب إلى الرمز - قطع الإكسسوار - إضاءة - الفضاء المسرحي ذاته) فسرعان ما يتغير النص المسرحي ويغدو مجرد كلمات رامزة تستثير أو تفتح عوالم متعددة للممثل للاستعاضة عنها بوجوده المسرحي وبنبضه المسرحي وحركته الداخلية وجسده الذي يغدو آلة يعزف عليها معزوفته .

في عرض (بقايا الذاكرة) يلخص " شاينا " خبراته وتجاربه السابقة حيث تتداخل الخبرة الواقعية بالخبرة الميتافيزيقية حيث يتعلم الفنان الشاب التعامل مع الشيء ونقيضه في آن واحد ، الحياة / الموت ، المعاناة / الاستقرار ، الحب / الكراهية ، الشيطان / الملاك ، الصخب / الصمت ... حيث تسعى التجربة إلى التوكيد الذاتي للحياة فالتجربة تسعى سعياً حثيثاً إلى تعليم شباب المبدعين مبدأ الخلاصة في الفن ، والأخذ من الأدب الإنساني أعظم ما فيه من ميراث فكري وإنساني ومن رموز تصبح رموزاً عالية لا تتقيد بالمكان ولا بالزمان ، تعلمهم كيف يتعاملون - عبر هذه الخلاصة - مع أجسادهم فيقتصدون في الحركة ويسعون إلى الوصول إلى جوهر ما تعنيه وما يعنيه وجودهم ذاته فوق الخشبة .

لذلك يصبح كل شيء يقومون به فوق الخشبة ذا معنى وليس خالياً منه ولذلك أيضاً يسارع الشباب المبدعون - عند شاينا - إلى البحث عن التكثيف في التعبير والتركيز في التعامل مع المواد الفقيرة ، إطارات السيارات تتشكل عند الشباب الممثلين داخل الورشة إلى دائرة يدخلون فيها ليقابلوا الموت ويلتفون في دائرته أو تتحول لعبة أو معاناة أو التفاف حول النفس ، كما يلتف كوكب الأرض حول الشمس بلا توقف .. السلالم التي تغدو للمثل لا أداة للصعود أو الهبوط فقط بل تعني البحث عن الخلاص ومحاولة اللقاء وهبوط للموت ... ، وإلى غير ذلك

من المهمات المسرحية التي يتعلم منها الشباب وكيف يبعث في جمودها نبض الحياة فتشاركه اللعب فوق خشبة المسرح وتصبح شريكة له في الإبداع ويؤخذ كل هذا بعين الاعتبار على مستوى الشكل العام الذي يجعل الممثل يتعامل مع كل هذه العناصر داخل سينوغرافية مسرحية تقوم بتشكيل كل جزء وكل ما هو موجود فوق الخشبة ، كما أننا نشاهد عالماً أو كوكباً آخر يحيل الوقائع الحياتية إلى فن مسرحي قلما نجد مثيلاً له .

رؤية سينمائية

بالرغم من أن حديثي يدور حول مسرح الصم التجريبي ، إلا أنني تمتلكني رغبة في الانتقال للحديث عن السينما .. ليس فن السينما بشكله العام ولكن بالتحديد عن فيلم سينمائي بعنوان " البيانو " هذا الفيلم الذي حصل على الجائزة الكبرى لمهرجان كان عام ٩٤ وتدور أحداث الفيلم حول حياة امرأة صماء بكماءفي إطار رومانسي كبير وقامت بدور هذه المرأة الممثلة الأمريكية الرائعة " هوللي هنتر " وفازت بجائزة أحسن ممثلة والمدهش في الموضوع أن تلك الممثلة لم تنطق بكلمة واحدة طوال الفيلم ، وإنما لعبت بتعبيرات وجهها كل الدور دون لحظة افتعال واحدة وكأنما ولدت بالفعل بكماء .

الفيلم كتبته وأخرجته المبدعة " جين كامبيون " وحصلت على جائزة أحسن سيناريو وجائزة السعفة الذهبية على الإخراج .

فيلم البيانو

هذا الفيلم بطلته امرأة صماء ..... وبيانو! ولكنه في الحقيقة سباحة داخل النفس البشرية والمشاعر الإنسانية في جو مليء بالسحر والجمال .

وأجمل ما في الفيلم أنه يؤكد على حق الصم في الحياة بشكل كريم واحترام مشاعرهم الدقيقة إذ لا يجب الوصاية عليهم أو الحجر على مشاعرهم وعواطفهم ... وعلى هذا فمن الممكن الإفاضة قليلاً لنحكي أن الأحداث تقع في القرن التاسع عشر بنيوزيلندا ، حيث تصل هذه المرأة الصماء ومعها طفلتها الصغيرة ، البالغة من

العمر تسعة أعوام إلى ذلك الشاطئ النائي المعزول في انتظار مركب تقلها إلى تلك الجزيرة حيث ينتظر هذه المرأة زوجاً ارتبطت به دون أن تعرفه أو أن تراه من قبل !

يطول انتظارها على الشاطئ وتأتي مركب وتنصرف دون أن تسمح لها بالركوب ... ذلك لأن ضمن متاعها المتعدد يوجد بيانو ضخم وثقيل الوزن جاهد العمال في نقله إلى الشاطئ ، ورفضت المركب دخوله لأنه أولاً لا يمكن رفعه إلى المركب وثانياً لأنه يهدد المركب بالغرق وهي لا تريد أن تتخلى عن هذا البيانو ، حاولوا إقناعها بالسفر بدونه ... ولكنها رفضت بإصرار !!!

وظلوا ينظرون لها في دهشة .. وهي لا تتكلم فهي بكماء .. إنما تعبر بحركات يديها فقط .. الوحيدة التي تعرف إشارات يديها هي طفلتها الصغيرة .. وبدورها تنقل للجميع إصرار والدتها على اصطحاب البيانو .

تركوها على الشاطئ وانصرفوا .. وباتت ليلتها وحيدة مع طفلتها والبيانو ، وعاصفة ثلجية تزيد من قسوة الوحدة والانتظار .. في اليوم التالي جاءت مركب أخرى ورفض أصحابها أيضاً نقل البيانو ، ولكنها أصرت على موقفها وكادت المركب أن تقلع لولا أن بعض ركابها أقنعوها بأن ترحل معهم ، فعاصفة ثلجية أقوى وأشد في طريقها لاكتساح الشاطئ ... ولا مفر من أن تتخلى عن حلمها بنقل البيانو معها ... ، وترضخ .. ترحل معهم .. تصطحب طفلتها وأمتعتها بينما البيانو يظل مكانه على الشاطئ في حالة سكون ... وهي لا تستطيع أن تتكلم وإنما يعبر وجهها وانكسار عينيها عن كل الحزن والألم .

وتصل المركب إلى الجزيرة يستقبلها زوجها الجديد ، يصطحبها الزوج إلى بيت خشبي وتواصل الصغيرة ترجمة إشارات أمها ... إنها تطلب من الزوج أن

يساعدها في نقل البيانو من مكانه على الشاطئ المهجور، ولكن الزوج يرفض تماماً ولا يفهم معنى إصرارها على ذلك البيانو وهي الصماء التي لا تستطيع أن تستمع من أنغامه شيئاً ... وتنطفئ هي وتذبل روحها حتى تتوسم في جارها الحطاب طريقها لتحقيق حلمها باستعادة البيانو ... إن هذا الحطاب رغم بدائيته وخشونة حياته وفقرها إلا أنه ينظر لها بقدر كبير من الاحترام والرقة ... تتجرأ لتدق بابه ولا تسعفها الكلمات فتكتب له خطاباً تسلمه له، ترجو؛ أن يساعدها في نقل البيانو.. يرفض .. ثم يتردد .. ثم يقبل بشرط !! ما هو هذا الشرط؟ أن تعلمه العزف على البيانو !! كل يوم درس للعزف، وأن يظل البيانو في بيته حتى تنتهي الدروس ولكن متى تنتهي الدروس ؟ سؤالاً تطرحه وهو لا يعرف إجابته وهي لا تريد أن تفسد هذا الاتفاق .. فتقترح أن يكون عدد الدروس بعدد أصابع البيانو السوداء، ومن بعدها يصبح البيانو من حقها كاملا. ويتم الاتفاق ويأتي لها بالبيانو وتشرق روحها من جديد وتسترد حيويتها وكيانها وتبدأ دروس البيانو.. ويبدأ بلمس أصابعها ورغم بدائية كل الظروف تنمو العلاقة في تصاعد عذب ورقيق.

لا إكراه أو عنف أو إذلال .. وإنما براءة المشاعر التي تتفتح وتزدهر وتتوحد، وكأنها نبات طبيعي يقاوم جفاف الواقع وقسوته .. ويكتشف الزوج ما حدث، وينفجر بركان الغضب، يقطع أصبع زوجته بالفأس .. يحطم البيانو.. يحطم البيانو.. يقاتل الجار الحطاب ...

هل أنهار عالم هذه المرأة، أبدا أنها ما زالت تقاوم .. ترحل من الجزيرة ومعها طفلتها .. ومعها جارها الحطاب الذى ارتبطت به ومعها أيضا بقايا البيانو، ينقلهم قارب إلى مكان جديد وفى عرض البحر تقرر المرأة التخلص من

البيانو !!! ويدفعونه لإلقائه فى قاع البحر ومع سقوط البيانو يلتف أحد الحبال فى قدمها لتسقط معه ، وتكاد تغرق ولكن إصرارها على الحياة يقويها لأن تصارع الأمواج وتتشبث بيد حبيبها الحطاب ليرفعها إلى القارب من جديد ... ويستكملون الرحلة معا ...

وما زلت أعتقد أن هذه المحاولة لحكى موضوع الفيلم ليست منصفة فهذا الفيلم عبقريته الحقيقية فى أسلوب الإخراج .. وفى أداء التمثيل .

أما البيانو هنا فهو رمز المشاعر والأحاسيس والبديل الكامل للحوار المنطوق مهما بلغ من الشاعرية . فهذه المرأة البكماء لم يكن إصرارها على البيانو سوى أنه صوتها وكلماتها وروحها وعندما وجدت الإنسان الذى يشاركها الفهم والحب ارتضت أن تتنازل عن هذه الآلة الضخمة حتى ولو كانت مقيدة معها بالحبال الغليظة .

أنها منتهى الواقعية التى توضح الأسباب التى تدفع بفئة الصم للإنطوائية والعزلة . إنهم يعبرون عن رفضهم للمجتمع المتخلف الذى يرفضهم ولا يعترف بحقوقهم المشروعة ، ولقد انسلخت بطلة الفيلم الصماء من المجتمع المتخلف والغير متفهم لمشاعرها الجميلة وعواطفها النبيلة وإبداعها الفنى واكتفت بآلة .

فى حين أننى أرى أن مشاعرنا هى التى تجعلنا بشر وتميزنا عن باقى المخلوقات .

وتبقى كلمة أخيرة أود أن أدونها على ما تبقى لى من سطور .

إن الإنسان الأصم يعانى حقا من انتهاك لحقوقه الإنسانية المشروعة فى هذا العالم المعاق .

رضا عبد العزيز